لاشيء

جلـول عـزونـة .

الى صاحب : « صحن كفتاجى بالعظمة »

« واذن فى الناس أن الرحيل قريب اذا ما بدأ الهمس قبيل طلـوع الشمس » .

« حديث نبوى شريف ما رواه الصحيحان ، لا البخارى ولا مسلم ولا غيرهما ، وهو اذن الى الانتحال أقرب » .

كأنى وأنت فى عهد ألف ليلة وليلة .. كل شىء مغلـف بشىء مـن السحر والخرافات والابهام والاسرار والبساطة بل واقول السذاجة . وراء كل ذلك او امام كل ذلك وحول ذلك اطار من الجنس لطيف ، رقيق محبب الى النفس . ولكن ما ابعدنى وابعدك عن هذا الطيف .. فأمامـى رجـل قد عشى بصره ، لا يرى أبعد من موطىء قدميه لا يكاد يشعر بوجـود الناس من حوله لولا صياحهم وهتافاتهم وبصاقهم .

« ففصلى هذا من فصول العنف فى الف ليلة وليلة » :

فهذا الرجل يعيش تماما كما تراءى فى حلم مواطن من مواطنينـا ، مناضل من مناضلينا ... قد عرف السياسة بمعانيها القريبـة الملاصقـان والبعيدة عنها ، قد عرف السجن وفعل العنف « وفعلوا له العنف » .

فهذا الرجل اذن قد كشف رأسه ، فتهدل شعره مقلبدا ، وبدون انتظام ، وسال عرقه ، ودمعت عيناه ... لا يكاد يرى شيئا الا ذلك الذباب المتزاحم على عمش عينيه وذلك الذيل المتراقص تحت أشعة الشمس ، يضرب به الذباب وكأنه يدفع به دفعا نحو وجه الرجل ، فلا الذباب يولى ولا الذيل ينقطع عن الحركة ولا حرقة الشمس تلطف من حدتها ولا الصياح يهتف ولا سيل البصاق يتوقف .

ينهض مواطننا اليوم وفى عينيه خيالات حلمه ، وينام من الغد وكل امانيه ان يعيش من جديد هذا المنظر التهريجى الممتاز .

فهذا الرجل اذن لعبة الصغار .. ولعبة الكبار .. قد صفقوا له بالامس حتى عيت أكفهم جميعا ... ويرجموه الآن فلا تعيى ايديهم ولا يكف سيل

بصاقهم ولا تعيى حناجرهم ولا ينتهى اصطفافهم ولا ينعب خيال مواطننا الممتاز من نفس الحلم ..

وترددد عليه بالحاح يخفف عليه وطأة الليل وطوله .. لقد كان منظر الف ليلة وليلة كاملا غير منقوص ، فها انا وانت فى مهرجان قد حضره الوف البشر ، وقد اصطف هؤلاء جميعا على جوانب كل الطرقات وكل الساحات وحتى فى الازقة وحتى فى خفايا راس مواطننا الممتاز .. كل هذه الالوف قد اظهرت وحدة فى الراى ووحدة فى الصف ووحدة فى الحركة وانسجاما « هارومنيا » فى هذه السنفونية الرائعة ..

وحتى ذيل الحمار قد نشط فى دفع الذباب الى وجه هذا الرجل المطاف به ، الحاسر الراس ، الاعشى النظر ، يلتهم عمش عينيه ، وينعم بطعم البصاق المنوع اللذيذ المتهاطل من هذه الافواه الصارخة ، المكشرة ، المتسخة ، المتهدمة الاسنان .. من فتحات مشوهة مرعبة ، مشنجة ، متطاولة .. ويسأل الطفل اباه :

ـ ماذا فعل هذا المسكين ؟ حتى يفعل ما يفعل به ؟

ويجيب الاب آليا وهو يبصق مع الناس :

ـ هذا كلب حلوف ، اراد ان يكون الكل فقراء .

ويضيف الابن :

ـ وهل يفقر الفقراء وهم لا يكتنبون شيئا ؟

ـ اسكت ـ فهذا ليس من شانك ـ هذا لعب الكبار .

ويصمت الطفل وفى عينيه احلام من احلام الف ليلة وليلة غير تلك الاحلام لانه يحمل قلبا ناصع البياض ، لا يعرف اللف والدوران ، ولا النفاق ...

« اللعبة لعبة : ولكن اهى لعبة الصغار ام الكبار » :

ـ مات البای !

ـ يحيا البای

ـ عجبا ابتاه .. حدثنى عن العائلة الحسينية اذن ؟

ـ وما الحسين بن على وما على بن ابى طالب ؟

ـ وما النبى ؟ ! لا شىء !

ـ أهذا كفر !

ـ نعم كل هؤلاء لا شىء ... بشر قد ظلموا او ظلموا .. ثم ولوا ، هكذا الدنيا .. لا أمان معها .. تصهرنا .،، وتذيبنا ،،،

ولكننا مع ذلك نتعنت ...

ـ واحمد باى ؟ أهو باى عظيم ؟ ؟

ـ نعم ، كان قصير القامة ولكنه قوى العينين ، اخترهما ـ ثاقب النظر ... ان نظر الى شخص .. يبوله ، ويدهش الابن الكبير والابن

الصغير ... ولا يريد أحد منهما ان يرجع الى عهد الصبى وعهد البول .
ـ والمنصف بـــاى ! ؟
ـ كان وطنيا ولكنه لم يكن راشدا بأتم معنى الكلمة ...
ـ والاستقـــلال ؟
ـ اسكت ، فهذا ليس من شأنك ـ هذه لعبة الكبار ...
« يا وجه الخبزة يا شفاه المشمش ، يا حياتى ـ »
ـ مـــاذا تحبين ؟ !
ـ أحـــب التيـــن ، زمـــن التـــين
ـ ومـــاذا أيضا ؟ ؟
ـ واحب التين فى غير زمن التين ...
ـ ثـــم مـــاذا ؟
ـ احب الفل والياسمين والرجل الرصين ...
ـ وتكرهين مـــاذا ؟
ـ واكره الرجل المتحجر القلب .. والرجل الانانى ـ المغرور ،،،
ـ ثـــم ؟
ـ واحب ابى ... شابا وكهلا وشيخا وحيا وميتا .
ـ عجيب ! !
ـ واى عجب ان تحب فتاة اباها ؟
ـ لا شىء ...
ـ ابى يبادلنى الحب ، احبه خصوصا وقد أظهر انه احسن تربيتى عند ما كان حيا ـ ويحسن الآن تحمل مسؤوليتى بعد ان مات !
ـ عجيب !
ـ نعم .. نعم .. فكل اطفالى نسبتهم اليه ،، وقد عز الاباء فى هـــذا العصـــر ! !
ـ او يجدر بفتاة ان تكون أما بدون رجل ..
ـ هذه لعبـــة الكبـــار .. اسكت ...
« وسكت طويلا .. ولكنى كبرت ـ ولم العب ،،، مع الكبار ،،، »
الرجل اعمش ، ومسكين .. اكل الذباب من عينيه ، فلم يعد يرى .. والناس ترجمه .. وما زنى .. وما سرق ،،، وما درى ،،،
والسائل ، الطفل يمد يديه ...
ـ اعطنى ثمن ربع خبزة ! ! اعطنى ثمن ربع خبزة ...
ـ اهذا زمن السؤال ... ! ابصق مع الباصقين .
ـ الا تشعر بمثل ما يشعر به اهل البلد ... ؟
ـ تنح من امامى .. ما اثقلك ؟ اليس لك بصاق على هذا المذنب ...
ـ البصاق .. لى بصاق .. لى كثير من البصاق .

— اذن هيـا ابصق معنـا ..
— بشرط ان تعطنى ثمن ربع خبزة ...

« والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلـد الاميـن »
قرآن كريم

نحـن نعيـش :
انـا
وانـت
وهـو
وطلب الخبز الصغير
فى بلـد امين

الرجل الاول : انا ادخن السجائر الموردة واشرب الكحول الغاليـة وانكح الاناث الاجنبية .. لذلك احب السياحة !! والحمد لله

الرجل الثانى : انا ابن فلان .. اركب الخيول الانكليزية ، والسيارات الامريكية واسكن القصور المرمرية ، لذلك انا اكره الاشتراكية والحمد لله

الرجل الثالث : انا احب الاوز والتفاح ، التين والزيتـون واللحـم والاسماك والسكنى بالمدينة .. لكن دخلى متواضع وجيبى دائما فارغ .. ولكنى احمد الله ..

الرجل الرابع : انا ومثلى لا زلنا نسكن الاكواخ ، وعلى كل فالحمد لله

الرجل الخامس : انا السائل ... اشترى الخبز بالبصاق .. ابيع ريقى وابصق معهم ولا ادرى لماذا ... ولكنى جائع دائما فلا بد من ارضاء اسيادى والحمـد للـه ..

الجميـع : ونحن نلتقى جميعا فى بلد واحد ونلتقى فى حمد الله ، والحمد لله على كل حال !!

« ففصلى هذا من فصول العنف فى الف ليلة وليلة »

الف ليلة وليلة فى راسى وراسك ورؤوس مواطنينا جميعا ...
ومـاذا نفعـل ...
— انـا احلـم
— وانـت ؟
— انـا احلم ايضا !
— وماذا ترى فى الاحلام ؟
— ارى انى لم اعد ابصق ولم اعد اصفق
— وانـت ؟
— ارى ان فأرا كبيرا ... من انواع الجرذان الكبيرة جدا .. قد دخل بعض الدهاليز الباطنية لبناية افريقيا ، فما احتواه الدهليـز ، واراد التخلص ، فضاقت به الجدران ، فاقتاد البناية كلها على ظهـره

على طول شارع بورقيبة .. الى البحيرة ... ثم سبح بها الى حلق الوادى .. فالى قرطاج ... فالى سيدى ابى سعيد ،،، وغرق معها فى اعماق البحر ... فتضيع البناية العظيمة ويضيع معها الضياع والسكر وتمضية الوقت الفارغ الى الابد ..

ـــ انت تحلم دائما بالجرذان ؟!

ـــ وهل اجمل من حلم ترى فيه الجرذان وهى تقضم وتتلوى وتتصايح وتتصـــارع ...

ـــ وهل تتكلم الجرذان فى احلامك ؟

ـــ كلا ولكنها فى ما عدا ذلك فهى تماما كالبشر ، فى القظم والتلـــوى والصياح والتسابق والوسخ .. وسوء الطوية ..

ـــ ولكن « الف ليلة وليلة » لا تكون كذلك الا اذا كان هناك شهريار وشهـــرزاد .

ـــ وهل يمكنك ان تصفهما !

ـــ كلا ويا للاسف ، فان الاحلام يجب ان لا تصبح « لعبة الكبار »

« وهل يفقر الفقراء وهم لا يكسبون شيئا »

انا طفل فى التاسعة من عمرى .. اتعب فى جمع ربع خبزة ، ولـــو كنت فتاة ! ؟ . لاعجب بعض كبراء القوم بى ، ولما تعبت .. ابصق كل يوم فى وجه المطاف به .. وجف البصاق فى فمى .. ولا ادرى لماذا لا اريد ان ابصق ولا ادرى لماذا اشعر بالاشفاق عليه .. ولكنه الرغيف ..

ولعلنى لن ابصق بعد اليوم .. بصاقا ولكن ماء .. اغبل به وجـــه المطاف به المسكين .. فأريح بعض عذابه .. واطفىء ضمئى و .

لقد صرت افهم الكثير .. ولكن لعب الكبار .. لا يزال يتعبـــدى رأسى الصغير ، اللهم الا اذا كان كله تمثيلا وكذبا وبهتانا وغرورا وانانية .. وظلما وصلفـــا ..

الارض تدور مع العوالم فى صمت وهدوء ، وانسجام ولكـــن رأسى يطن ، يتفجر من وقع البصاق على الارض ..

« ولعلنـــى لـــن ابصق بعد اليـــوم ... »

« المناج » يدور .. يدور المناج ورأسى يدور .. وانا كالطفل العب وادور ... واصيح

اركب الحصان الخشبى ، واخاله المطهم العربى .

وتركب السيارة الخشبية الصغيرة والصاروخ والطائرة ويدور المناج بك ايضا .. ونصفق ونبتسم .. ويضحك لنا الناس ويقهقهون ،،، رجـــل وامرأة يركبان « المناج » .. وينزل الاطفال ويصفقون ! لنـــا شعبيـــة ! ويتابعهم الكبار .. يصفقون على وعليك .. أهى السخرية ، اهى البراءة .

يداعبنا الناس .. اتراهم يشجعوننا .. ام ؟ ! . ويكثر الزحام من حولنا

.. منهم مؤيد ومنهم محتج ومنهم الساخط الناكر .، ولم ننزل ، لا نزال نتابع الـــدوران ..

ويغضب صاحب اللعبة ويصرخ بنا ..

هذا جنون .. وطيش وبلاهة .. « المنتاج » للاطفال لا للكبار ، هـــذه لعبة اطفال .. ويوقف الدوران ولا ننزل . ويعلونا الصراخ ويمس وجهينـــا رذاذ البصـــاق ...

« لا شيء .. لا شيء ،، لا شيء . !! »

حبيبتي الاولى احببتها منذ الصغر .. قبلتها ، ضممتهـــا . استلقيت معها على الحشائش وعلى الامواج .. فنهرني ابوها ونهرهـــا ابـــى . تلك « لعبـــة الكبـــار » .

وافتـــرقنـــا ...

حبيبتي الثانية تزوجتها .. تمنيت ان احيى معها .، ما لم استطعته مع الاولى ،، فغضبت على ،، رصاحت « انا اريد منك ابناء كثيرة .. لا القبل ،، تلك مـــن العـــاب الصغـــار ..

وشاب رأسك ! وعلت رأسي بعض الشعيرات البيضاء ...

ـــ دعنا من الشيب والاحلام ولنتحدث في الواقع !

ـــ الواقع وما هو .. ؟ قد نقضي الليل والنهار نعرف الواقع ولا نعرفه ... الاحسن أن نترك المواضيع الميتافيزيقية مثل تعريف الواقع وتحليـــل مركبات البصاق والعدوى التي تتسرب بواسطته ،، ونتـــرك المواضيـــع النفسية ، مثل غرق بناية افريقيا في اتجاه سيدي ابي سعيد ، واثر بصاق البشر اذا ما سال على وجوه بشر مثلهم .

ـــ وماذا ترانا نعالج من مشاكلنـــا اذن ؟

ـــ مشاكلنا في كثرة الكرم والغوص في الماورائيات ونحن لا نستطيع بعد مد البطون بما يلزم اجهزتها للدوران ..

ـــ وهذا أليس هـــو الواقـــع عينـــه !

ـــ كأني بك غبي .. وأين الواقع في هذا ومن هـــذا ؟ ،، الواقع أن يشرب شهريار الكثير من الجعة كل مساء ويتغازل مـــع جاريـــة جارتـــه شهرزاد .. ويخون طباخته الماهرة فلا يأكل صحونها ، وان يغتسل بالابن الناصع البياض والطيب الرفيع ويستمع لوصلات من « المـــالوف » وان يسب ماسحي الاحذية ويضرب رؤوس عشرات منهم يوميا ويملا السجون من الذين لا يجدون ما يلبسون من الباس المحترم فيجـــرحـــون الاذواق والعيـــون .، وان ..

ـــ كأنك تهذي ،، انما اردت ان اقول أن الجرذان ..

ـــ ولا جرذان في الواقع .. **انما تلك احلام رجل آثر ان لا يصمت زمن الصمـــت .**

ـ الواقع ان الجرذان والواقع شيء واحـــد . اذن ..

ـ والله لم تفهمني .. انما انا سكران ، من طبقة من يأكل فيبتســم فيهذى ، سامحني واهل طبقتي والله هو خير الغافرين ..

« انما تلك احلام رجل آثر ان لا يصمت زمـــن الصمت »

ويتثاءب صاحب الحمار ، وصاحب الجرذان ، ويغمض عينيه برهـــة فيستريح انطاف به برهة ، بل لحظة من عذاب البصاق ومـــن صـــراخ الجيـــــاع ...

تونس جلول عزونـــه